أول أبطال الحروب الصليبية :

عمـــــاد الدين زنـكى

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

لم يكن الصليبيون يستطيعون أن يجدوا وقتاً أنسب من هذا الوقت الذى اختاروه للانقضاض فيه على بلاد الشام ؛ فقد كان النظام الإقطاعى يومئذ يمزق وحدة هذه البلاد ، ويوهن من قواها ؛ فلم يستطع أمراء الإقطاعات المتفرقون أن يصدوا هذا الجيش اللجب الذى بعثت به أوربا لاتهام تلك القطعة من الأرض ، فسقطت فلسطين وجزء من سوريا بين أيديهم ، وأسسوا بها إمارات صليبية هى إمارة الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ؛ وبرغم ما بذله أمراء البـــلاد مجتمعين حيناً ، ومتفرقين حيناً ، من الجهود فى حرب الصليبيين لم يستطيعوا استخلاص البلاد من أيديهم ، أو صد عدوانهم ؛ ورأينا الفرنج وقد امتدت حدودهم من ماردين وأنطاكية فى الشمال إلى مدينة العريش لدى حدود مصر . وأخذت جيوشهم تضخم وقسوتهم على من بجوارهم من العرب تشتد ، ونهبهم ما يطيقون نهبه يزيد فى كل يوم ، وأصبحوا يرتكبون كل عظيمة لا يهابون قصاصاً ولا عقوبة ، واحتملت البلاد المجاورة لهم كل ما لا يستطاع حمله من الذل والإرهاق ، ففرضت عليها الضرائب الثقيلة لا تميز فى ذلك بين مسلم ومسيحى .

تلك كانت حال البلاد عند ما ولى عماد الدين زنكى إمارة الموصل . وقد لوحظ فى اختياره لهذه الإمارة ما عرف عنه من الكياسة وحسن الإدارة ، والشجاعة فى حرب الصليبيين ؛ فرأى الأمير الجديد أنه لا يستطيع النهوض بهذا العبء ، وشمل الأمة ممزق ، ووحدتها مبعثرة ، فوضع نصب عينيه أن يوحد البلاد تحت قيادته ، ويجمع أمرها فى يديه ، حتى يحمل على عدوه حملة رجل واحد ، ويستخلص من بين براثنه الوطن المغتصب ؛ فضم إلى إمارته معظم بلاد الجزيرة ، ثم عبر الفرات واستولى على حلب وكثير من بلاد الشام ، وحاول الاستيلاء على دمشق حتى تتم له وحدة البلاد ولكنه لم يوفق .

ورأى عماد الدين أن إمارته — وقد اتسعت رقعتها — فى حاجة ماسة إلى الإصلاح الشامل ؛ فنصب نفسه أباً لشعبه وسهر على إصلاح شئونه المالية ، حتى يستند إلى دعامة قوية من المال فيما صمم عليه ، وكانت البلاد قد خربت قبـــله ، لطول غارات الصليبيين عليها ، وصار كثير منها غير مزروع ، وانقطعت التجارة لتعرضها لنهب الفرنج ، فبذل زنكى جهوداً جبـاوة فى إحياء الزراعة ، وإعادة الرخاء إلى إمارته ؛ فرجع الفلاحون إلى أرضهم ، وبنيت المدن الخربة ، وعاد إلى التجارة الحياة ، كما أخذ العابثين بالنظام ، وقطاع الطرق بالشدة والقسوة ، وحكم إمارته بعين يقظى تنقل إليه عيونه كل ما يجرى فيها وفيما حوله من البلاد ، حتى لا يؤخذ على غرة . ونهض بالبـلاد نهضة ثقافية ، فكان هو ووزيره جمال الدين الجواد من حماة رجال العلم والثقافة . وأحاط نفسه بنخبة ممتازة من الرجال أغدق عليهم خيره ، ولم يكن من صفاته التلون والتغير على أصحابه ، فكانوا لذلك يخلصون له فى النصح ، ويبذلون نفوسهم فى سبيله ، وبهذا كله استطاع أن يجمع قوى هذه الإمارة ويوجهها إلى الصليبيين يحطم بها ما استطاع من قوتهم

كان الفرنج ينظرون إلى هذه الإمارة الناشئة بعين الريبة ، فما هو إلا أن صمم عمـاد الدين على لقائهم عند حصن الأثارب

الفكرية والعاطفية ، مشوهاً لأنه يفقد عناصر التوجيه القوى المنظم الذى يجب أن يقع عبئه على الدوائر المختصة فى الجامعة العربية . وفى نشاط جامعة الحلف الأمريكى (الولايات المتحدة وجاراتها اللاتينية الجنوبية) فى هذا المضمار دروس وخبرة تصلح للاقتباس والقدوة المفيدة . وبعد ، فهذه وغيرها من أوجه العجز لا تنفى مطلقا متانة المبادىء التى تدفع العرب إلى الوحدة والتعاون الإقليمى إلى أبعد حدود التعاون . ولكنها ألوان فى القصور مرجعها فقدان الاستعداد لدى القائمين على شئون هذه المنظمة الإقليمية التى تحتل اليوم على الرغم من كل ذلك مكانة خطيرة فى الأوساط الدولية . والذين أتيح لهم الاتصال عن كثب بهيئة الأمم والوكالات الفنية العالمية يقدرون هذه الخطورة حق التقدير . هو قصور فى الاستعداد وضعف فى الوسائل والسبل لتحقيق هذا التعاون .

وإذا كان التحدى سبيل إلى الرقى والتقدم ، فإن هذا القصور — الذى هو جزء من الأزمة التى تواجه الجامعة ومعها العرب فى مختلف أقطارهم — هو نوع من التحدى . والأزمات فى جملتها أنواع من التحدى . وتاريخ التمدن كما قال المؤرخ توينبى Toynbee تحد وإجابة .

نيويورك عمر مليبى

سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وهو حصن قريب من حلب ، اشتد ضرره على أهلها ، فلا يكاد يمر يوم من غير غارة عليهم ، أو نهب لأموالهم . حتى جمع الفرنج فارسهم وراجلهم يريدون أن يسددوا إلى تلك الإمارة ضربة قاضية ، لا تقوم لها بعدها قائمة . ولعل الخوف من هذا الحشد الذى جمعوه قد داخل نفس بعض أصحاب العماد ؛ فأشاروا عليه بالعودة ، ولكن الحماسة المتدفقة فى صدره ملأت نفوس جنده همة وإقداماً ، فأقبلوا على أعدائهم فى إيمان وبسالة يريدون أن يظفروا بالشهادة فى سبيل الله . ولقد صبر الفريقان وأبلوا فى المعركة أشد البلاء ، ثم ظفر المسلمون بأعدائهم وانتصروا عليهم ، وانهزم الفرنج هزيمة منكرة . قتل منهم عدد ضخم ، ووقع الكثير من فرسانهم فى الأسر وأذاقهم المسلمون من بأسهم ما أدخل فى نفوس عدوهم الرهب والوهن ، فلم يستطع الفرنج لقاء عماد الدين عند ما مضى بجنده إلى قلعة حارم بالقرب من أنطاكية ، وبذلوا له نصف دخل المدينة على أن يعقد بينه وبينهم هدنة ، فأجابهم إلى ذلك ، حتى يعطى جيشه الناشئ فرصة للراحة والاستعداد ، وعاد بعد أن رأى الفرنج أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم فى حساب وصار قصارى همهم أن يحفظوا ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى ملك جميع البلاد.

رأى الفرنج هذا الخطر فأرادوا تحطيمه ، ومضى ملك بيت المقدس إلى أعمال حلب يهاجمها ، وجاءت طائفة من فرنج الرها تغير عليها ، فاستقبلهم عامل حلب وهزم الأولين ، وأباد الآخرين . وأراد عماد الدين أن يثأر من عدوه ، فانقض بجنده على اللاذقية وأثخن فى الفرنج قتلا ، وأسر منهم سبعة آلاف أسير ، وكانت الغنائم أكثر من أن تحصر ، وأخذت الروح المعنوية تقوى عند المسلمين ، بينما دب الوهن والخوف إلى نفس أعدائهم ، فلم يثأروا لأنفسهم ، ومضى زنكى يكيل لهم الضربات المتلاحقة ، ويأخذ منهم القلاع والحصون ، ويسترد المدن والقرى ، ويمنح أهلها الأمان والسلام حتى ضج الفرنج ، وأرسلوا إلى ملك القسطنطينية يستصرخون به ، ويحرضونه على أن يصل لينقذ البلاد قبل أن تملك ، فأقبل على مجل ، ثم مضى إلى حلب يريد أن يستولى عليها فلم يجد فيها مطمعاً ، فذهب إلى قلعة شيزر ، ولم تكن خاضعة لزنكى ، يريد أن يجعلها قاعدة يشن منها هجومه . ولعل ملك الروم ظنها سهلة المنال ، وأن العدو اللدود زنكى لا يعنى بأمرها فحاصرها ، ونصب عليها سبعة عشر منجنيقاً ، ولكن صاحبها أرسل يستنجد بعماد الدين فجاء إليه مسرعاً بجيشه ؛ غير أن ملك الروم كان قد جمع من الجند عدداً ضخماً ؛ فرأى العماد أن يستخدم الحيلة فى هزيمته ؛ فكان يسير كل يوم إلى شيزر هو وجنده ، ويقفون بحيث يراهم الروم ، ويرسل سرايا تأخذ من ظفرت به منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : إنكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بى استرحتم ، وأخذتم شيزر وغيرها . فأشار فرنج الشام على ملك الروم بلقائه ، فلم يفعل ، وقال : أتظنون أن ليس له من الجند إلا ما تريدون ؟ إنما هو يريد أن تلقوه فيجيئه من نجدات المسلمين مالا حد له . وكان زنكى يرسل إلى ملك الروم يوهمه أن قلوب الفرنج متغيرة عليه وأنهم سينفضون من حوله إن هو أقبل على الحرب ، ويرسل إلى الفرنج يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم : إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً . تخاف كل من صاحبه ، ورحل ملك الروم عن شيزر وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ؛ فتبع زنكى جند عدوه وظفر بالكثير منهم ، ووقع فى يده جميع ما تركه الفرنج غنيمة باردة ، وقد بهر هذا النجاح شعب عماد الدين وخلده الشعراء فى قصائدهم .

وكان أعظم ما قام به عماد الدين ، أنه حطم إمارة كاملة من إمارات الصليبيين ، تلك إمارة الرها ، ففى جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة سقطت المدينة فى يده بعد أن حاصرها حصاراً عنيفاً . وقد فكر فى أن ينزل عقوبة مخيفة بالصليبيين انتقاماً لما اقترفوه من مذابح عندما دخلوا بيت المقدس وأنطاكية وغيرها ، ولكن إنسانيته غلبت غضبه ، فلم يقتل عدا المحاربين أحداً ، ولم يأسر رجلا ولا امرأة ولا طفلا . ولم يستول على ممتلكات أحد ، وأمر جنده بإعادة ما أخذوه فعاد البلد آمناً عامراً

كان لسقوط الرها دوى عظيم فى جميع الأرجاء . وكان فتحاً عظيماً ملأ قلوب المسلمين غبطة وبهجة ، وأقبل الشعراء يهنئون عماد الدين بهذا الفتح وأكثروا وأطالوا ؛ فمن ذلك ما قاله ابن منير:

صفات مجدك لفظ جل معناه ... فلا استرد الذى أعطاكه الله

يا صارماً بيمين الله قائمه ... وفى أعالى أعادى الله حداه

أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً ... بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه

فداك من حاولت مسماك همته ... جهلا وقصر عن مسماك مسماه

أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظلل أفق الدنيا جناحاه

فتح أعاد على الإسلام بهجته ... فافتر مبسمه واهتز عطفاه